في ظلال القرآن " أيه ومعني .. الجزء الخامس عشر " - سورة الكهف

السبت 10 يونيو 2017 06:06 م

في ظلال القرآن " أيه ومعني .. الجزء الخامس عشر " - اعداد فريق " #نافذة_مصر " - سورة الكهف
سورة الكهف مكية - وآياتها عشر ومائة
بسم الله الرحمن الرحيم
القصص هو العنصر الغالب في هذه السورة ففي أولها تجيء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس وفي وسطها تجيء قصة موسى مع العبد الصالح وفي نهايتها قصة ذي القرنين . ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية; ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة، وبعض [ص: 2257] مشاهد الحياة التي تصور فكرة أو معنى، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير
أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة
فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها
في البدء: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا: اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .
وفي الختام: قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا .
وهكذا يتساوق البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحي، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث ويلمس سياق السورة هذا الموضوع مرات كثيرة في صور شتى:
في قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم: ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها، لقد قلنا إذا شططا .
وفي التعقيب عليها: ما لهم من دونه من ولي، ولا يشرك في حكمه أحدا ..
وفي قصة الجنتين يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا، لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا .
وفي التعقيب عليها: ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا، هنالك الولاية لله الحق، هو خير ثوابا وخير عقبا .
وفي مشهد من مشاهد القيامة: ويوم يقول: نادوا شركائي الذين زعمتم، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم، وجعلنا بينهم موبقا .
وفي التعقيب على مشهد آخر: أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء؟ إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا
أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله
ففي مطلع السورة: وينذر الذين قالوا: اتخذ الله ولدا، ما لهم به من علم ولا لآبائهم
والفتية أصحاب الكهف يقولون: هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين! وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله: قالوا: ربكم أعلم بما لبثتم .
وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجما بالغيب: سيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون: خمسة سادسهم كلبهم - رجما بالغيب - ويقولون: سبعة وثامنهم كلبهم قل: ربي أعلم بعدتهم [ص: 2258] ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا، ولا تستفت فيهم منهم أحدا .
وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: رحمة من ربك وما فعلته عن أمري فيكل الأمر فيها لله
فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة، فيرد في مواضع متفرقة، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار

فكل ما على الأرض من زينة إنما جعل للابتلاء والاختبار، ونهايته إلى فناء وزوال: إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا .
وحمى الله أوسع وأرحب، ولو أوى الإنسان إلى كهف خشن ضيق والفتية المؤمنون أصحاب الكهف يقولون بعد اعتزالهم لقومهم: وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون - إلا الله - فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا والخطاب يوجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليصبر نفسه مع أهل الإيمان; غير مبال بزينة الحياة الدنيا وأهلها الغافلين عن الله واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا وقل: الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .
وقصة الجنتين تصور كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة وكيف يجبه صاحبها المنتفش المنتفخ بالحق، ويؤنبه على نسيان الله: قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟ لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك، ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا، أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا .
وعقب القصة يضرب مثلا للحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها: واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيما تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدرا .
ويعقب عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .
وذو القرنين لا يذكر لأنه ملك، ولكن يذكر لأعماله الصالحة وحين يعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السدين أن يبني لهم سدا يحميهم من يأجوج ومأجوج في مقابل أن يعطوه مالا، فإنه يرد عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم قال: ما مكني فيه ربي خير . وحين يتم السد يرد الأمر لله لا لقوته البشرية: قال: هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا .
وفي نهاية السورة يقرر أن أخسر الخلق أعمالا، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه; وهؤلاء لا وزن لهم ولا قيمة وإن حسبوا أنهم يحسنون صنعا: قل: هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا .
[ص: 2259] وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج الفكر والنظر وتصحيح القيم بميزان العقيدة
ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة:
تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عباده الكتاب للإنذار والتبشير تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا: اتخذ الله ولدا; وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف، هربا بالعقيدة أن تمس
ويبدأ الشوط الثاني بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله ثم تجيء قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله، واستصغاره لقيم الأرض وينتهي هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية
والشوط الثالث يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة قصة آدم وإبليس وينتهي ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم
وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع وقصة ذي القرنين الشوط الخامس
ثم تختم السورة بمثل ما بدأت: تبشيرا للمؤمنين وإنذارا للكافرين، وإثباتا للوحي وتنزيها لله عن الشريك